الجمعة 10 رجب 1430هـ - 03 يوليو 2009م

أسئلة الدين والهوية: هل نحن حقا مؤمنون؟

علي مكي

كيف نصلّي و(نحقد)؟ كيف نصومُ و(نظلم)؟ وكيف نسبّح الله ونهلّل ونكبّر صبحاً ومساءً، وفي الوقت ذاته (نكفّر) إخواناً لنا ونظنّ بهم، وبما يقولون أو يكتبون، السوء، على الرغم من أنّنا لم نستند في ذلك إلاّ على (غبش) التأويل ولي أعناق السطور لنؤكّد شيئاً ما هو في نفوسنا أساساً قبل أن نقرأ ونسمع معتمدين على (التصنيف) الذي أبدعنا في وضعه دون أيّة قواعد تجعله مستقيماً وصحيحاً.

كيف (نتصدّق) ونزكّي ثمّ نحسدُ بعضنا بعضاً؟ وكيف (نحجّ) رغبةً في الطّهر والنّقاء، لنأتي بعد حينٍ ونكرهُ لغيرنا (الخير) الذي نحبّه لأنفسنا فقط؟

كيف نقرأ القرآن (بكرةً) ونرحل في سعة رحمة ربّنا، نعطّر أفواهنا بالبخور السماويّ، وفي العشيّ نمضي مليّاً في (التنقيب) عن أخطاء بشرٍ مثلنا، نترصّد هفواتهم وزلاّتهم، نتتبّعها من أجل تشويههم واتّخاذها ذريعة لحكم نصدره عليهم، ظلماً وعدواناً، بأنّهم خارج عالم النّور وكأنّ هذا العالم ملك لنا فقط، نحن الذين أسّسْناه وأقمنا حدوده ونصبنا من أنفسنا(حَرَساً) عليه، والبقيّة ليسوا إلاّ ظلاماً وجحيماً لا يشملهم عالمنا المنير والدّافئ!!

كيف نوصي بالاطّلاع على سيرة وسنّة المصطفى عليه الصلاة والسّلام وننْهلُ منها، كل يوم، ونحفظُ عن (ظهر قلب) العشرات بل المئات من المواقف التي تضيء بخلقه الجميل صلّى الله عليه وسلّم ، وتعبّر عن تعامله الرفيق الرقيق بمن حوله ومع الذين يقفون في الجانب المقابل لكسبهم وتحبيبهم في الدين ومجادلتهم بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الاستماع لهم، وتفهّم بعض الأخطاء التي تحدث من بعض الذين كانوا معه وتوضيحها باتّباع أحسن الأساليب، دون أن يطلق عليهم مدافع الكلمات الثقيلة المتسرّعة، تلك المدافع التي ما زالت تواصل إنتاج ذخيرتها المصنوعة من حديد (الغلو) الذي حذّر منه نبيّنا الكريم، وتلبسُ ثوب الحفاظ على الدين من أعدائه الذين يعيشون بيننا ولهم هويّتنا ذاتها، لكنّنا لا نتراجع، فنستمرّ في رميهم برصاص (المروق) والتآمر على الأمّة وعلى الإسلام وثوابته ونصِفُهم بأعداء الدين وأعداء الله!!!

جميع الحقوق محفوظة لقناة العربية © 2009

كيف نظلّ ندعو إلى الاقتداء بسنة سيّد الخلق صلى الله عليه وسلم وإلى اتّباع ما جاء في هديه القويم من حثٍّ على كل خير ونهيٍ عن كل شرٍّ وفتنة، فنكتب أحاديثه في(خُطبنا) ونستشهدُ بها في ندواتنا ومواعظنا، نأمر النّاس بالبرّ والتّقوى وترك الظلم وحفظ اللسان ومعاملة نسائنا بالحسنى وإسداء العون لمن يحتاجه، نُعْلي من فضل التّراحم والتكافل والتناصح فيما بيننا، كما نشدّد على أهمية الوقوف مع الحق وكلمة الحق ونصرة المظلوم.. وأن نكون أمّةً وسطاً، لا إفراط ولا تفريط ولا تزمّت أو تشدد، لنخرج بعد كل ذلك إلى ساحة الحياة فنأكل لحوم أشقّائنا من بني آدم عقب أن نميتهم، ونهتك أعراضهم ونقول عنهم ما ليس لنا به علم، نجورُ على الضّعفاء ونحوزُ ممتلكاتهم ونستغلّ براءتهم وحاجتهم الماسة للقليل من الحياة.

نتجهّم في وجوه بعضنا بعضاً، وإذا حدث أن ابتسمنا، فإنّها ابتسامة أشدّ صفرةً من بقرة قوم موسى عليه السلام، التي ذبحوها وما كادوا يفعلون. ننسى كذلك كل ما سبق وردّدْناه من هدي المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، الذي يوجّه باعتبار النساء (شقائق) للرجال، غير أنّ قلوبنا المريضة تتسلّطُ علينا وتنحرفُ بنا إلى احتقارهنّ وإهانتهنّ (وضربهنّ) والاستيلاء على حقوقهنّ (والتضييق) عليهنّ، وحيثما ذهبْنَ أو وُجِدْنَ تركّزتْ عليهنّ نظرات الريبة والاستنكار والظنّ السيئ واحتمال الفساد... وفي نموذج (المطلّقات) في مجتمعنا دليلٌ ناصعٌ على الحالة المرضيّة والأزمة التي نعيشها كمجتمع، وكل ذلك يتمّ وفقاً لأمورٍ ما أنزل الله بها من سلطان، نلصقها بجدار الدين الذي لا يقبلها، لأنّه يرفضُ ما يخرج به عن اتّساعه وبساطته ووضوحه ومرونته واستيعابه لكل ما هو في صالح المجموع أو الجماعة.

تُرى لماذا نهتم بالظاهر وننسى الباطن، نعتقد بالقشور ونهمل اللّب، حيث يغدو الدين مجرد كلمات لا تتجاوز اللسان وزينة للمنابر لا أكثر؟! لا يكفي أن يكون الله على ألسنتنا نلهجُ بذكره كلاماً، فلنسكنْه قلوبنا أولاً، لأنه جل وعلا ضوءُها الطّارد لعتمتها القاسية وهو الذي يحوّلُ صحراءها إلى جنّة وارفة الظلال.

ما قيمة الأذكار إن لم تُقمْ في القلب، تحميه من جمر الظنون الخبيثة؟
ما جدوى وضوئنا خمس مراتٍ في اليوم، ما أهمية ركوعنا وسجودنا وقيامنا وتهجدّنا إن لم يفعل القلب ذلك أولاً فيتوضأ ويركع ويسجد ويقومٍ ويتهجد؟ وعندما تمنحنا قلوبنا صفاءً يقربنا من إدراك فعليّ لحقيقة أن الدين هو المعاملة كما يقول الأثر النبوي، عبر(ممارسة) توافقُ الهويّة المعلنة قبلاً، بحيث يستحيلُ (الفعلُ) هويّة تعلن عن نفسها في هدوء جميل يسير مع الفطرة ويبتعد عن الافتعال أو الصراخ.

ما أحوجنا، إذن، إلى أن نغسل قلوبنا في أنهار المحبة الكريمة والتسامح وحسن الظن والصدق في التعامل بالحرص على المواجهة والمكاشفة لجلاء مشاكلنا وإفراغ النفوس مما نعبئه فيها ونراكمه من (أحقاد) وضغائن طمست نور الحب وألقت بحياة البشر في جحيم مستعر!

إن (الإسلام) لم يكن في يوم من الأيام شكلاً، أي مجرد أداءٍ لفروض وواجبات حسّية وذكر وتسبيح وإعفاء لحى وتقصير ثياب فقط، بل هو جوهر في الأصل ويمثّل في جوهره (معنى) عميقاً شكّل (المبنى) ، أي إنه (داخلٌ) يتحكم في (الخارج) وينظم إيقاعه ، وإذا (صفا) الداخل يصفو الخارج بكل تأكيد، والعكس ليس صحيحاً في كل الأحوال.

* نقلا عن صحيفة "الوطن" السعودية

جميع الحقوق محفوظة لقناة العربية © 2009